تجارب معاصرة في القيادة العلمية للأمة

د. عبد الحي يوسف

(أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم، السودان)

ملخص البحث

حين تفتقد الأمة لقيادات حقيقية ورموز علمية يظهر الخلل، وينحسر دور العلماء اجتماعيًّا وسياسيًّا؛ ليقتصر في الغالب على أوساطِ المتديِّنين.

ولأسباب سياسية كثيرة كقِلة الوعي بضرورة الإصلاح السياسي، والتغيير الاجتماعي الواسِع، وعَدَم استِقلالية بعضِ العلماء، ووُقوعهم في طَرَفَي الموافَقة أو المعارَضة السياسية -تفتقد الأمة القدرة على إفراز قيادات علمية حقيقية.

ومثَّل غِياب التخطيطِ العِلمي والاستراتيجي في العملِ العلمي والدعوي، فضلاً عن بُعْد العلماء عن مواقعِ التأثير الإعلامي والاجتماعي اثنين من أهم الأسباب الإدارية لعدم إفراز الأمة لتلك القيادات.

ومن خلال نماذج علمية معاصرة من أمثال «ابن باديس»، و«الشيخ طاهر بن عاشور»، و«الأمير محمد الخطابي» و«عمر المختار» وغيرهم يبرز أثر الأسرة التي تُعْنَى بالعِلم، وقيمة القدوة، وصحبة العلماء، والانتفاع بالمركز الاجتماعي للأسرة، فضلاً عن الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية، في تكوين شخصيات العلماء والقادة العلميين ونجاح مشاريعهم.

ونتج عن غِياب القيادات العِلمية في إدارةِ مجتمعاتِنا المسلمة أن ملأَ هذا الفراغَ قياداتٌ ليس لها كفاءة عِلمية ولا إدارية، وليس لها قَبول اجتِماعي، كما تَنقُصُها الأمانة في بعضِ الأحيان، وهذا مُشاهَد في كثيرٍ من الدول الإسلامية.

كما أحدثَ غِيابُ هذه القيادات هُوَّةً حالَت بين العلماءِ وبين قيادةِ المجتمع وإدارةِ مؤسَّساته.

إنَّ تقصيرَ العلماءِ في بناء مؤسَّساتِ المجتمَع سياسيًّا وتعليميًّا واجتماعِيًّا على العِلمِ والإصلاح؛ جعلَ منهَجَ العلماء يكتفي غالِبًا بِرُدُود الأفعال، وما يُشْبِهُ سِياسة إطفاء الحرائق.

ومن الأهمية بمكان تبني الأمة لآليات واضحة تمكِّنها من صناعة الرموز العلمية الحقيقية من خلال: حسن اختيار من يُرَشَّحُ ليكون من القيادات العلمية؛ ليكون رحمةً لأُمَّتِه، بجانب وضع معايير عِلمية وأخلاقية لهذا الاختيار؛ حتى لا يُرَشَّحُ مَن ليس له إلا حُبّ الذات، وإنْ كان ذكيًّا نابِغًا؛ فيكون مشرُوعَ فِتنة للناسِ.

وتمثل إقامة دوراتٍ مُكثَّفة للقياداتِ في الإدارة والإعلام والعلوم المعاصرة، والدعوة لإقامةِ مؤسَّسةٍ خاصةٍ بتكوينِ القياداتِ الإسلامية -خطوتين هامتين على طريق صناعة الرموز العلمية.

أفكار ومقتطفات

- لا خـيرَ أعظـم من العلم والفقـهِ في الدِّين، كما روى معاويةُ -رضـي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «مَن يُرِد الله به خيرًا يُفَقِّهْه في الدِّين».
- بعـض الدُّعـاة لم يتخلَّصوا من أسْـرِ الجماعةِ والعملِ التنظيمي، كما أنَّ بعـضَ العلماء يقصرون اهتمامهم على قلةٍ من الطلبة، ولا يَسْعَوْن إلى نَشرِ نُورِ العلم بين عامة الناس، مُستَفِيدِين من سَعَةِ مؤسَّساتِ الدولة وفئاتِ المجتمَع وشدةِ حاجةِ الناس.
- لـو توفَّـرَ التخطيطُ العِلمي والتربوي؛ لكان مِن أهمِّ الأهـدافِ الموضُوعة والمصالح المرجُوَّة: إعدادُ قياداتٍ عِلميةٍ تنهضُ بالمجتمعاتِ المسلِمة على بَصِيرةٍ ووِفْقَ خُطَّةٍ عِلْمِيةٍ واضِحة.
- تلقَّـى ابنُ باديس العلومَ الإسـلامية على جماعةٍ من أكابر علمـاء الزيتونة، أمثال: العلامة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ في التكوين اللغوي لعبد الحميد بن باديس، والشغف بالأدب العربي.
- جعـلَ النبيُّ -صلى الله عليه وسـلم- الدعوةَ الإسـلاميةَ قائمةً على أسـاسِ التربيـةِ والتعليم، وعدَّ (الهدى والعِلمَ) غَيثًا نافِعًا يُحيي القُلوبَ والعُقول.
- عمل عبد الحميد بن باديس -رَحِمَه الله- على نَشْر التعليم الإسلامي في الجزائر؛ حتى ختَمَ تفسير القرآن بالجامع الأخضر بقُسْـطَنْطِينَة بعد خمسـة وعشـرين عامًا، فاحتفلـت الجزائر بختم هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ (١٢ من يونيو ١٩٣٨م).
- ابـنَ عاشُـور -رَحِمَه الله- دخلَ بـابَ الإصلاح من بابه الكبـير: وهو باب التعليـم؛ فالتعليم قَمِينٌ بتَصحِيح المفاهِيم وغرسِ القِيَم الإسـلامية، وإعدادِ قياداتِ المسـتقبَل؛ فـإذا صلُحَ التعليمُ تحقَّقت النهضةُ العلمية والتنميةُ الاجتماعية.
- يقـول غراسـياني Graziani القائد العـام الإيطالي في بيان له عن الوقائع التي نشـبت بين جنوده والسـيد عمـر المختار: «إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشـرين شـهرًا»، هـذا عدا ما خاضه المختار من المعارك في خلال عشرين سنة قبلها.
- يُلاحَـظُ في تجربةِ عُمرَ المُختار -رَحِمَه الله- دَوْرُ أُسْـرَتِه الحريصة على تعلِيمِه في إعداده وصُحْبَتِه للعلماءِ؛ ليكون من أعظم قياداتِ المجتمع الليبي.
- قـاد عمر المختار المجاهديـن في ليبيا، ووفقه الله -عز وجل- أن يُلْحِقَ بالإيطاليين خسـائرَ فادِحةً وضرباتٍ مُوجِعة، كما استطاع أن يُلْفِت أنظارَ العالم إلى قضيَّتِهم.
- يُسـتفاد مـن هذه النمـاذج العِلميـة المعاصِرة: (ابـن باديس في الجزائـر، وابن عاشـور في تونس، والخطابي في المغرب، وعمر المختار في ليبيا) أنه لا صلاحَ لِلفَردِ ولا لِلمُجتمع إلا بالتربية والتعليم، والدعوة الحكيمة وإعدادِ قادةِ المجتمع من العلماء الربانيِّين والدعاةِ الموفَّقِين.

- أدَّى غِيابُ القيادات العِلمية في إدارةِ مجتمعاتِنا المسلمة إلى أن يُملأَ هذا الفراغُ بقياداتٍ ليس لها كفاءةٌ عِلميةٌ ولا إداريةٌ، وليس لها -في كثيرٍ من الأحيان- قَبولٌ اجتِماعي، كما تَنقُصُها الأمانةُ والورَعُ، وليس لها من بضاعة إلا الولاء الحزبي والسياسي. وهذا مُشاهَدٌ في كثيرٍ من الدولِ الإسلامية.

- تقصير بعض العلماءِ في بناءِ مؤسَّساتِ المجتمَع وإصلاحِها تعليميًّا واجتماعِيًّا وسياسيًّا؛ جعلَ منهَجَ العلماءِ يكتفي غالِبًا بِرُدُود الأفعالِ، وما يُشْبِهُ سِياسةَ إطفاءِ الحرائق، وأما السَّبقُ إلى صِناعةِ القادةِ والإصلاحِ السياسي والإعلامي وأخذُ المبادَرات الاجتماعية الإصلاحيةُ فأقلُّ من القليل.

- قالت خديجةُ -رضي الله عنها- تُثْني على أنواعِ الخدماتِ الاجتماعية التي كان يُقدِّمُها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إلى الناسِ قبل الإسلام: (كلا والله ما يُخْزيك الله أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدُوم، وتَقْرِي الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوائب الحق)! رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. حديث ٣، وأطرافه: (٣٢١٢، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢ - ٤٦٧٤، ٦٥٨١).

تجارب معاصرة في القيادة العلمية للأمة

د. عبد الحي يوسف : أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم، السودان

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه الطيِّبين الطاهرين، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد، فإنَّ العلماءَ هم الجماعةُ والأُمَّةُ الوَسَطُ والطائفةُ المنصُورة، كما تَرْجَمَ البُخَارِيُّ رَحِمه الله في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة)، باب: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1] وما أمَرَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بلُزُومِ الجماعة، وهم أهلُ العِلْم). وروى رحمه الله في باب: (قول النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهِرين على الحق) وهم أهلُ العِلم) عن المغيرة بن شُعبة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيَهم أمر الله وهم ظاهرون).[2]

فلا خيرَ أعظم من العلم والفقهِ في الدِّين، كما روى مُعاويةُ -رضي الله عنه- قال: سمعت النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: (مَن يُرِد الله به خيرًا يُفَقِّهْه في الدِّين).[3] وروى عبدُ الله بن مَسعُود قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا حَسَدَ إلا في اثنتَيْن: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحق، وآخَرُ آتاه الله حِكمة، فهو يقضي بها ويُعلِّمها).[4]

وقد بيَّنَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- أنَّ بقاءَ العِلْم ببقاءِ العُلماءِ وذَهابَه بذَهابهم، كما روى البُخَارِيُّ -رَحِمَه الله- في كتاب (العِلْم) باب (كيف يُقبَضُ العِلم؟) أنَّ عمرَ بن عبد العزيز كتبَ إلى أَبي بَكْر بن حَزْم: (انظُرْ ما كان من حديثِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- فاكْتُبْه؛ فإني خِفتُ دُرُوسَ العِلم[5] وذَهَابَ العُلَماء)، وروى عن عبد الله بن عَمْرو -رضي الله عنهما- قال: سَمِعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنَّ الله لا يَقبِضُ العِلمَ انتِزاعًا

(١) البقرة ١٤٣.

(٢) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨١، (ر: ٣٤٤١)، كتاب الاعتصام.

(٣) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨٢ (ر: ٧١).

(٤) صحيح البُخَارِيّ، حديث ٦٨٨٦. رواه البُخَارِيّ -رَحِمَه الله- في باب: (ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومدح النبي -صلى الله عليه وسلم- صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلِّمها. ولا يتكلَّف مِن قِبَلِه، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم).

(٥) أي ضَياعَه.

يَنتَزِعُه من العِبادِ؛ ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبْضِ العُلماء؛ حتى إذا لم يُبْقِ عالِمًا اتخَذَ الناسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فسُئِلُوا فأفتَوْا بغَيرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وأضَلُّوا).[٦] ورواه كذلك في كتاب (الاعتصام بالكِتَابِ والسُّنَّة)، باب (ما يُذكَرُ مِن ذمِّ الرأي وتكلُّفِ القِياس (ولا تَقْفُ) لا تقُلْ (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)) عن عُروةَ -رضي الله عنه- قال: حجَّ علينا عبد الله بن عمرو فسمِعتُه يقول: سمِعتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إنَّ الله لا يَنزِعُ العِلمَ بعد أنْ أعْطاهُمُوه انتِزاعًا؛ ولكنْ يَنتزِعُه منهم مع قبضِ العُلماء بعِلْمِهم؛ فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ يُستَفْتَوْن؛ فيُفتُون برأيِهم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون».[٧] وفي لفظٍ لمسلم: «إنَّ الله لا ينتَزِعُ العِلمَ من الناس انتزاعًا؛ ولكن يقبضُ العلماء؛ فيَرفَعُ العِلمَ معهم، ويُبقِي في الناسِ رؤوسًا جُهَّالا يُفتُونهم بغيرِ عِلْم؛ فيَضِلُّون ويُضِلُّون»[٨]

فكيف نستفيدُ من تجارِبِ عُلمائنا ونهتدي بها في حياتنا؟ هذا ما نُحاوِلُ بيانَه في هذه الورقة (تجارب مُعاصِرة في القيادة العِلْمِيَّة)، وهي تتناولُ المطالِبَ التالية:

أولاً: لماذا لا تُفرِزُ الأُمَّةُ قيادةً عِلميةً حقيقيةً؟

ثانيًا: نماذج عِلمية مُعاصِرة.

ثالثًا: الأُمة وإشكالات غياب الرُّموز العلمية.

رابعًا: الأُمة وآليات صِناعة الرُّموز والقادة.

والله الموفِّقُ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواهُ.

المطلب الأول: لماذا لا تُفرِزُ الأمة قياداتٍ عِلميةً حقيقيةً؟

للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى بيانِ الأسباب السياسية والأمنية من ناحية، والأسباب الإدارية والإعلامية من ناحيةٍ أخرى.

أولاً: الأسباب السياسية والأمنية:

١) المضايقاتُ الأمنية التي تُسَلِّطُها بعضُ الأنظمةِ الحاكمة على العامِلِين في حقلِ الدعوة والتدريس في المساجد ومَنع المنظمات الإسلامية (نموذج تونس مثلاً..)؛ مما يجعل وظيفةَ التربية والتعليم مُهِمَّةً شاقةً، كما أنَّ هذا الوَضعَ الأمنيَّ يَحرِمُ كثيرًا من طَلَبةِ العلم من الاتصالِ الوَثِيقِ بأهلِ العِلم والانتِفاعِ بهم.

> ما زال كثيرٌ من العامِلِين للدعوة -على سَعَةِ علمِهم الشرعي- مُتردِّدين في المساهَمة المنضبِطة في الإصلاحِ السياسي والتنمية الاجتماعية.

٢) حَذَرُ كثيرٍ من العلماء وتوجُّسُهم من إثارةِ الرِّيبة والشُّكوك من حولِهم؛ أو خوفُهم من انقِطاعِ دعوتِهم إذا هم توجَّهوا إلى إعدادِ قياداتٍ بديلةٍ للمجتمع؛ مما جعلَ تأثيرَ العلماءِ محدُودًا.

٣) قِلَّةُ الوَعيِ بضرورةِ الإصلاحِ السياسيِّ والتغيير الاجتماعيِّ الواسِع. فما زال كثيرٌ من العامِلِين للدعوة -على سَعَةِ علمِهم الشرعي- مُتردِّدين في المساهَمة المنضبِطة في الإصلاحِ السياسي والتنمية الاجتماعية.

٤) الانتِماءُ الضيِّق إلى الجماعاتِ، وقِلةُ الهمِّ الإسلاميِّ العامّ، والانغِلاقُ على العمل لمصلحةِ جماعةٍ مُعيَّنةٍ، فالملاحَظ أنَّ بعضَ الدُّعاة لم يتخلَّصوا من أسْرِ الجماعةِ والعملِ التنظيمي، كما أنَّ بعضَ العلماء يقصرون اهتمامَهُم على قلةٍ من الطَّلَبة، ولا يَسْعَوْن إلى نَشرِ نُورِ العلم بين عامَّةِ الناس، مُستَفِيدِين من سَعَةِ مؤسَّساتِ الدَّوْلَة وفئاتِ المجتمَع وشدَّةِ حاجةِ الناس. والله المستعانُ.

٥) عَدَمُ استِقلاليَّةِ بعضِ العُلَماء، ووُقوعُهم في طَرَفَيِ الموافَقةِ أو المعارَضة السياسية؛ فمَن وافَقَ رضِيَ وتابَعَ واستغنَى غالبًا عن إقامةِ مؤسَّساتٍ تعليميةٍ واجتماعيةٍ حُرَّةٍ وفاعِلةٍ، وقَنَعَ بالموجود. ومن عارضَ لم يسلَمْ له عَملٌ تغييريٌّ كبيرٌ. والحكمةُ تتمثلُ في مُراعاةِ التوازُنِ في الإصلاحِ وحُسنِ التناصُحِ والتعليم، وتحقيقِ المقاصِدِ بالرِّفقِ والإقناعِ والموعظةِ الحَسَنة.

(٦) صحيح البُخَارِيّ ١/٥٠، حديث ١٠٠. وصحيح مسلم ٤/٢٠٥٨، حديث ٢٦٧٣، كتاب (العلم) باب (رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان).

(٧) صحيح البُخَارِيّ ٦/٢٦٦٥، حديث ٦٨٧٧.

(٨) قال ابنُ حَجر -رَحِمَه الله-: «في هذا الحديث: الحَثُّ على حِفظِ العلم، والتحذيرُ من ترئيس الجَهَلة، وفيه: أنَّ الفتوى هي الرِّياسةُ الحقيقية، وذَمُّ مَن يُقْدِمُ عليها بغيرِ علم». فتح الباري ١/١٩٥.

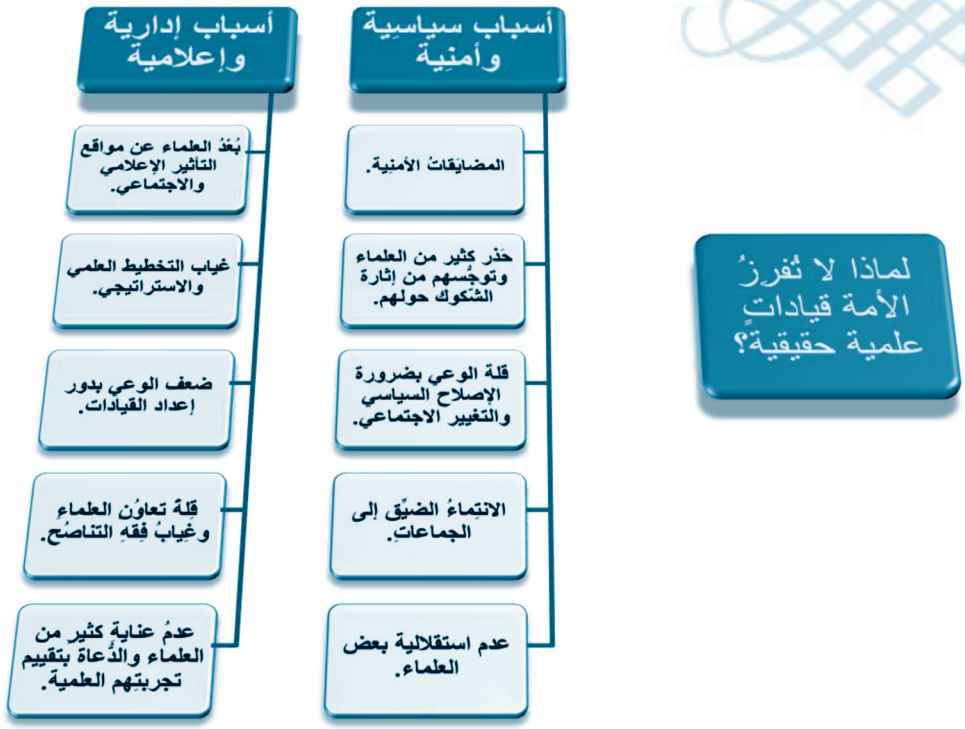

ثانيا: الأسْبَابُ الإداريَّة والإعلامِيَّة:

وتتمثلُ في ما يلي:

١) عَـدَم اهتمام كثيرٍ من العُلَماءِ الأفاضِلِ بالنواحي الإداريـة والإعلامِيَّة، وبُعْدُهم عـن مواقع التأثيرِ الإعلامِـيِّ والقيـادَةِ الاجتماعيـة؛ ممـا قَلَّـلَ من نُفُوذِهـم وخِبْرَتهم الإعلامِيَّة وقُدْرتِهم الاجتماعِيَّةِ على التغيير.

٢) غِيـاب التخطيطِ العِلميِّ والاسـتراتيجيِّ في مجالِ العمـلِ العِلْمِـيِّ والدَّعَـوِيِّ. فلـو توفَّـرَ التخطيطُ العِلمـيُّ والتربـويُّ؛ لـكان مِـن أهـمِّ الأهـدافِ الموضُوعة والمصالح المرجُوَّة: إعدادُ قياداتٍ علميةٍ تنهضُ بالمجتمعاتِ المُسْلِمة على بَصِيرةٍ ووِفْقَ خُطَّةٍ عِلْمِيةٍ واضِحةٍ.

٣) ضَعْـف الوعـي الإداريِّ والقناعـةِ بـدورِ إعـدادِ القيـاداتِ الفِكْريَّـة والرُّمـوز العِلميَّة في إحداثِ النهضةِ السياسية والاجتماعِيَّةِ المنشُودةِ.

٤) قِلـةُ تعـاوُنِ العلمـاءِ وغِيـابُ فِقـهِ التناصُـحِ بـين المؤسَّساتِ الإسلامية -على اختِلافِ الجماعاتِ لدَّعويةِ العامِلة- وعدمِ انتباهِهم إلى فوائدِ التنسِيقِ فيما بينَهم وثَمَراتِ توزيعِ الأعمالِ حَسَبَ التَّخصُّص والكفَاءَة.

٥) عدمُ عنايةِ كثيرٍ من العُلَمَاءِ والدُّعاة بتقييمِ تجربتِهم العِلْمِيَّة؛ لتصحيحِ الأخطاءِ واجتنابِ الوقُوعِ فيها من جديدٍ، وقد روى أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ).[٩] وترجَمَ البُخَارِيّ -رَحِمَه الله-: في كِتَاب الأَدَب (بَاب (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ) وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لا حَكِيمَ إِلا ذُو تَجْرِبَةٍ)).[١٠] وقد سُئِل أَحْمَد -رَحِمَه الله- عن معنى قولِ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: (لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ)؟ فقال: «إن يَقَع مَرَّةً في ذَنْبٍ لا يَعُود فيه».[١١] وقَالَ الْخَطَّابِيُّ رحمه الله: «أَيْ لِيَكُنْ الْمُؤْمِن حَازِمًا حَذِرًا لا يُؤْتَى مِنْ نَاحِيَة الْغَفْلَة فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى، وَقَدْ يَكُون ذَلِكَ في أَمْر الدِّين كَمَا يَكُون في أَمْر الدُّنْيَا، وَهُوَ أَوْلاهُمَا بِالْحَذَرِ».[١٢] وقال ابنُ حَجَر -رَحِمَه الله-: «فِيهِ تَحْذِير مِنْ التَّغْفِيل، وَإِشَارَة إِلَى اِسْتِعْمَال الْفِطْنَة».

(٩) صحيح البُخَارِيّ ٩٨/١٩، حديث ٥٦٦٨.
(١٠) صحيح البُخَارِيّ ٩٧/١٩.
(١١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٤٧/١.
(١٢) نقله ابن حجر في فتح الباري ٣٢١/١٧.

وَمَالَ أَبُو عُبَيْدٍ إِلى أَنَّ مَعْنَاهُ: لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ إِذَا نُكِبَ مِنْ وَجْهٍ أَنْ يَعُود إِلَيْهِ...[١٣] وقِيلَ: «الْمُرَاد بِالْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْحَدِيث: الْكَامِل الَّذِي قَدْ أَوْقَفَتْهُ مَعْرِفَته عَلَى غَوَامِض الْأُمُور؛ حَتَّى صَارَ يَحْذَر مِمَّا سَيَقَعُ. وَأَمَّا الْمُؤْمِن الْمُغَفَّل فَقَدْ يُلْدَغ مِرَارًا».[١٤] وقال النَّوَوِيُّ -رَحِمَه اللَّه-: «مَعْنَاهُ: الْمُؤْمِن الْمَمْدُوح هُوَ الْكَيِّس الْحَازِم الَّذِي لَا يُسْتَغْفَل؛ فَيُخْدَع مَرَّة بَعْد أُخْرَى وَلَا يَفْطِن لِذَلِكَ... وَفِيهِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ نَالَهُ الضَّرَرُ مِنْ جِهَةٍ أَنْ يَتَجَنَّبهَا لِئَلَّا يَقَعَ فِيهَا ثَانِيَةً».[١٥]

المطلب الثاني: نَمَاذِج عِلمِيَّة مُعاصِرَة:

ونتناول أربعةَ نماذِجَ من القيادات العِلميةِ التي نجحَتْ في قيادةِ مجتمَعِها، وتركَتْ أثرًا عظيمًا في تاريخِ الأُمة وحياةِ الناس: هي نَمُوذَج الشيخ ابْن بَادِيس رئيس جمعية العُلَمَاء المسلمين بالجزائر، والشيخ ابْن عَاشُور مدير جامع الزيتونة ومفتي المالكية بتونس، ونموذج الأمير الْخَطَّابِيّ الشيخ المجاهِد في المغرب، والشيخ عُمَر المختار قائد المجاهدين في ليبيا.

أ) نموذج ابْن بَادِيس:

فقد وُلد الشيخ عبد الحميد بن بَادِيس -رَحِمَه اللَّه- سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وتُوُفي سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠م).[١٦]

وهو «عَبد الحمِيد بن مُحَمَّد المصطَفَى بن مَكِّيّ ابْن بَادِيس: رئيس جمعية العُلَمَاء المسلمين بالجزائر. وُلد في قسنطينة، وأتم دراسته في جامع الزيتونة بتونس، وأصدر مجلةَ الشِّهَاب، واشتغل بالسياسة وصَارَع الاستعمار الفرنسيّ، واضطُهِدَ وأُوذِيَ، وتُوفي بقسنطينة. له تفسير القرآن الكريم».[١٧]

ويُلاحَظ في تجربةِ عَبد الحمِيد بْن بَادِيس -رَحِمَه اللَّه- في الجزائر أمورٌ:

أولها: دَوْرُ الأُسرةِ التي تُعْنَى بالعِلم والدِّين في تكوين العُلَمَاء وتربيةِ الدُّعاة؛ وذلك بِغَرس محبةِ القرآن والسُّنةِ والعلوم الشرعية والآداب العربية في قُلوب الناشئة، وحُسن تربيتِهم، وتوفير الشروط المُساعِدة على نبوغِهم ورُسُوخِهم في العِلم؛ فقد حَفِظَ القرآنَ وهو في الثالثة عَشْرة من عُمُره، وتعلَّم مبادئ العربية والعلوم الإسلامية على يد الشيخ «أحمد أبو حمدان الونيسي» بجامع سيدي محمد النَّجَّار، ثم سافر إلى تُونس في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وانْتَسَب إلى جامع الزيتونة؛ مما فتح له أبوابَ العِلم النافعِ على مِصْراعَيه.

ثانيها: أثرُ القُدْوةِ وصُحبةِ العُلَمَاء في تكوين القياداتِ العِلمِيَّة:

فَقَدْ تلقَّى ابنُ بَادِيس العلومَ الإسلامية على جماعةٍ من أكابر عُلَماء الزيتونة، أمثال: العَلَّامَة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي كان له تأثيرٌ كبيرٌ في التكوين اللُّغَوِيّ لعَبْد الحميد بْن بَادِيس، والشَّغَف بالأدب العربي، والشيخ محمد الخضر الحسين، الذي هاجر إلى مصرَ وتولى مشيخةَ الأزهر. وبعد أربع سنوات قضاها ابْن بَادِيس في تحصيل العِلْم بكل جدّ ونَشَاط، تَخَرَّج في سنة (١٣٣٠هـ/١٩١٢م) حاملاً شَهادةَ «التَّطْويع»، ثم رَحَلَ إلى الحِجَاز لأداءِ فَريضَة الحَجِّ، كما اتَّصَل بعددٍ من علماءِ مصرَ والشام، وتَتَلْمَذ على الشيخ حسين أحمد الهِنْدِيّ الذي نَصَحَه بالعَودَة إلى الجزائر واستِثْمار عِلْمِه في الإصلاح؛ إذْ لا خيرَ في عِلم لا ينفَعُ الناسَ، فَعَاد إلى الجزائر، وفي طريق العودة مرَّ بالشام ومصرَ واتَّصَل بعُلَمَائهمَا، واطَّلَعَ على أوضاعِهم الاجتماعية والثقافيةِ والسياسية؛ مما وَسَّعَ

(١٣) قال ابن حجر: «وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الْأَكْثَر وَمِنْهُمْ الزُّهْرِيّ رَاوِي الْخَبَر، فَأَخْرَجَ اِبْن حِبَّان مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن عَبْد الْعَزِيز قَالَ: «قِيلَ لِلزُّهْرِيِّ لَمَّا قَدِمَ مِنْ عِنْدَ هِشَام بْن عَبْد الْمَلِك: مَاذَا صَنَعَ بِك؟ قَالَ: أَوْفَى عَنِّي دَيْنِي ، ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ شِهَاب تَعُود تُدَان؟ قُلْت: لا . وَذَكَرَ الْحَدِيث». وقد رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء «قال سعيد بن عبد العزيز: قضى هشام عن الزهري سبعة آلاف دينار، وقال: لا تعد لمثلها تدان، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)» سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٠.

(١٤) فتح الباري لابن حجر ١٧ /٣٢١.

(١٥) شرح النووي على مسلم ٩/ ٣٨١..

(١٦) وفي معجم المؤلفين لعمر كحالة ١٠٥/٥: عبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ) (١٨٨٧ - ١٩٤٠ م)

(١٧) المرجع السابق.

مَدارِكه وزادَ مِن وَعْيِه بأساليبِ الإصلاحِ. فَقَدْ انتفَعَ ابـنُ بَادِيس بِصُحْبةِ العُلَمَـاء ونَصائحِهم وتجارِبهم في أعمالِه الإصلاحيَّة.

ثالثها: قَنَاعَة ابْن بَادِيس بأنَّ الإصلاحَ يبدأ بالتربية والتعليم:

فَتِلْكَ هي الوظيفـةُ التي بُعِث بها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ووَرَّثَها من جاء بعده من المصلِحين، كما قـال الله عـزَّ وجـل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْـلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[18] وقال جَلَّ جلاله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[19]، وقـال تَعَـالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[20].

وقـد جعلَ النبيُّ -صلـى الله عليه وسـلم- الدعوةَ الإسـلاميَّةَ قَائِمةً على أسـاسِ التربيةِ والتعليم، وعدَّ (الهُـدَى والعِلمَ) غَيثًـا نافِعًا يُحيِي القُلـوبَ والعُقولَ، كما روى البُخَارِيّ ومُسْلِم عَنْ أَبِي مُوسَى -رضي الله عنـه- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّه بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْم كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا: فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ[21] فَأَنْبَتَتِ الْـكَلأَ وَالْعُشْـبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَـتْ مِنْهَـا أَجَادِبُ أَمْسَـكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّه بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَـا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِـكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِيـنِ اللَّهِ، وَنَفَعَـهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِـمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَـنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًـا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».[22]

فَقَدْ عَمِل عَبد الحميد بْن بَادِيس -رَحِمَه الله- على نَشْـرِ التعليمِ الإسلاميِّ في الجزائر؛ حتى ختَمَ تفسيرَ القـرآنِ بالجامع الأخضر بقُسْـطَنْطِينَة بعد خمسـة وعشرين عامًا، فاحتَفَلَت الجزائر بخَتْمِ هذا التفسير في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٥٧هـ (١٢ من يونيو ١٩٣٨م).

رابعهـا: دَعْوَتُـه إلى العـودةِ بالإسـلام إلى مَنابعـه الأولى، وتطهـير العقائـدِ والأفـكارِ مـن الأوهـام والأباطيـلِ التي علقـت بها، ومُحارَبة الفِـرَقِ الضَّالَّة التي نشَـرتِ الخُرَافَات وأعانت المسْـتَعْمِر. وهذا من توفيقِ الله عزَّ وَجَلّ لابْن بَادِيس؛ فالإصلاحُ لا يَتَحَقَّق إلا بالحِكمةِ والموعظةِ الحسَنَة، كما قال عزَّ وجل: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.[23]

ورَحِمَ الله السَّعْدِيَّ حَيْثُ قال: «كمالُ العبدِ مُتَوَقِّفٌ على الحكمَـةِ؛ إذْ كَمالُه بتكمِيـلِ قُوَّتَيْه: العِلْمية والعَمَلية.. وبذلك يتمكَّنُ من الإصابةِ بالقَولِ والعَمَلِ وتَنزِيلِ الأمُورِ مَنازِلَها في نَفسِه وفي غيرِه، وبدون ذلك لا يُمْكِنُه ذلك».[24]

خامسـها: عِنايتُـه بتربيةِ الشـباب وتعليمِهم؛ حيث لم يقتَصِـرْ على تعليمِ الكِبار، بـل عَمَدَ ابنُ باديس -رَحِمَـه الله- إلى تعليـمِ الصِّغـار بعـد خُرُوجِهم من كتاتِيبِهـم. ثم أسَّـسَ بعـد بِضْعِ سـنواتٍ مع جماعةٍ مـن أصحابـه مَكْتبًـا للتعليم الابتدائي في مسـجد سـيدي بُومعزَة، ثم انتَقَـل إلى مَبْنى الجمْعِيَّة الخيرية الإسـلاميَّة التي تأسسـت سـنة (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)، ثم تطوَّر المكتبُ إلى مدرسـة جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي أُنشئت في (رمضان ١٣٤٩هـ/١٩٣١م) وتكونـت هذه الجمعية من عشـرة أعضاء برئاسـة الشيخ عَبْد الحميد بْن بَادِيس[25]، رَحِمَه الله تَعَالى.

(١٨) الجمعة ٢.

(١٩) البقرة ١٥١.

(٢٠) آل عمران ١٦٤. وقال الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. البقرة ١٢٩.

(٢١) وفي روايةٍ لمسلم: (فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ)، صحيح مسلم م ١١/٣٩٥، حديث ٤٢٣٢. كِتَاب الْفَضَائِل، بَاب (بَيَان مَثَل مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْم).

(٢٢) رواه البُخَارِيّ في كتاب العلم.. باب (فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ). فتح الباري ١/٢٣٦. حديث ٧٧.

(٢٣) البقرة ٢٦٩.

(٢٤) تيسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن السعدي، ص ١١٥.

(٢٥) راجع (ابن باديس: الإسلام ديننا والعربية لغتنا)، (في ذكرى ميلاده: ١١ ربيع الآخر ١٣٠٧هـ)، سمير حلبي.

ب) نموذج ابن عاشور -رَحِمَه الله-:

وُلِدَ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بتونس سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وتوفي سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

وهو «محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المُفْتين المالِكِيِّين بتُونُس، وشيخ جامع الزيتونة وفُرُوعه بتُونس، مَولِدُه ووفَاتُه ودِرَاستُه بها. عُيِّن (عام ١٩٣٢م) شيخًا للإسلام مَالِكِيًّا.

وهو من أعضاء المجمَعَيْن العربِيَّيْن في دمشق والقاهرة. له مُصنَّفاتٌ مطبوعة، من أشهرها: (مَقَاصِد الشَّريعَة الإسلاميَّة) و(أُصُول النِّظَام الاجتماعِيّ في الإسلام) و(التَّحْرير والتَّنْوير) في تفسير القرآن، و(الوقف وآثاره في الإسلام) و(أصول الإنْشَاء والخَطَابَة) و(مُوجَز البلاغَة) ومما عُنِيَ بتحقيقه ونشره (ديوان بَشَّار بن بُرْد) أربعة أجزاء، وكتَبَ كثيرًا في المجلات، وهو وَالِدُ محمد الفاضل ابن عاشور».(٢٦)

ويُلاحَظ في تجربة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رَحِمَه الله- ما يلي:

أولاً: أثرُ الأسرة العلمية العريقة في نشأته ونبوغه، وقد سبقت هذه الملاحَظَة في نموذج ابْن بَادِيس -رَحِمَه الله-؛ فالأسرةُ هي المحضَن التربويُّ الأولُ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.(٢٧) وقد قال ابنُ عاشور -رَحِمَه الله- في تفسير قول الله عزَّ وجل في مريم -عليها السلام-: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾:(٢٨) «المرَادُ بالقَانِتِين: المكثِرُون من العبادة. والمعنى: أنها كانت سَلِيلةَ قوم صَالحِين، أي: فجاءت على طريقةِ أُصُولِها في الخيرِ والعَفاف!

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ!».(٢٩)

ثانيًا: نلاحِظُ أنَّ ابنَ عاشُور -رَحِمَه الله- دخلَ بابَ الإصلاح من بابِه الكبير: وهو باب التعليم؛ فالتعليم قَمِينٌ بتَصحِيحِ المفاهِيم وغرسِ القِيَم الإسلاميَّة، وإعدادِ قياداتِ المستقبَل؛ فإذا صلُحَ التعليمُ تحقَّقت النهضةُ العِلْمِيَّة والتنميةُ الاجتماعية؛ ولذلك كان من أعظم أعمالِ ابنِ عاشُور: إصلاحُ التعليم في الزيتونَة والصَّادِقية، وقد شَهِدَ بذلك مُحَمَّد عَبده -رَحِمَه الله- فقال: «إنَّ مُصلِحي الزيتونة سَبَقُونَا إلى إصلاحِ التعليم؛ حتى كان ما يجرُون عليه في جامع الزيتونة خيرًا مما عليه أهلُ الأزْهَر».(٣٠)

ثالثًا: عنايةُ ابن عاشور -رَحِمَه الله- بكتابة المؤلَّفاتِ القيِّمة التي انتفعَ بها الناسُ في العَالَمِ الإسلامِيّ، خاصَّة تفسيره القيِّم (التحرير والتنوير).

رابعًا: حِفاظُه على هَيبةِ الفتوى واستِقْلالِها، وصَدْعُه بالحق، ومِن مَواقِفه الجليلةِ المشهُورة -رَحِمَه الله-: رَفضُه إصدارَ فتوى تُبِيحُ للتونسِيِّين الفِطْرَ في رمَضَان، وكان ذلك عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م) عندما دعا الرئيسُ التونسيُّ السابقُ «بورقيبة» العُمَّالَ إلى الفِطر في رمَضَان بدَعْوَى زِيادَة الإنتاج، وطَلَب من الشيخ ابن عاشور أنْ يُفْتِيَ في الإذاعَةِ بما يُوافِق هذا، لكنَّ الشيخَ صرَّحَ في الإذاعَة بما يُرِيدُه الله تعالى، بعد أن قَرأَ آيةَ الصِّيَام، وقال بَعْدَهَا: «صَدَقَ الله وكذب بورقيبة»! فَخَمَدَ هذا التطاوُلُ المقيتُ، وهذه الدعوةُ الباطلةُ بفضلِ مقُولة ابْن عاشور.(٣١)

ج) نموذج الأمير الخَطَّابِيّ -رَحِمَه الله-:

وقد وُلِدَ الأميرُ محمد بن عبد الكريم الخَطَّابِيّ بالمغْرب سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م)، وتُوُفِّيَ سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

وهو «محمد بن عبد الكريم الريفي الخَطَّابِيّ: زعيم الثورة الريفية المعروفة باسمه في شمالي المغرب. وُلِد في بلدة (أجدير) قرب الحسيمة من الريف، في بيت عِلْم وجِهَاد، من قبيلة وريا غل إحدى كُبريات القبائل البربرية في جبال الريف. وحَفِظ القرآن وبعث به والده إلى (القرويين) بفاس، فتعلَّم وعاد إلى الرِّيف وأقام في (مليلة) فَوَلِيَ قضاءها. وامتد احتلالُ الأسبان من مليلة وتطوان إلى (شفشاون) فأظهر

(٢٦) الأعلام للزركلي ٦/١٧٤.

(٢٧) الأعراف ٥٨.

(٢٨) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. التحريم ١٢.

(٢٩) التحرير والتنوير ١٥ / ١٩٤. والشعر لزهير من أبياته السائرة:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلَامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ!

وَهَلْ يَحْمِلُ الْحَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ!

(٣٠) الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

(٣١) الطاهر بن عاشور: صدق الله وكذب بورقيبة، مصطفى عاشور.

عبد الكريم -والد الخَطَّابِيّ- مُعَارضَته لهم، وكان من أعيان القوم؛ فانتقم الأسبان منه بعزل ابنِه محمد واعتقاله في سجن (كبالرزا) سنة ١٩٢٠م، وأراد (محمد) الفرار من المعتقل فسقط وكُسرت ساقه، وأُطلق، فجمع أنصارًا من وريا غل (قبيلته) وقد آلت إليه زعامتُها بعد أبيه، وقَاتَل الأسبان، فظفر في معركة (أنوال) من جبال الريف، في يوليو ١٩٢١م (أواخر ١٣٣٩هـ)، وتتابعت معاركُه معهم فاحتل شفشاون (١٩٢٥)، وحاول احتلال تطوان وأرسل مَن يُهَدِّد (تازة) وقُدِّر جيشُه بمئة ألف.

وأنشأ جمهوريةَ الرِّيف، وخاف الفرنسيون امتدادَ الثورة إلى داخل (المغرب) فحالفوا الأسبان؛ وأطبقت عليه الدولتان، فاستسلم مضطرًّا إلى الفرنسيين في ٢٥ مايو ١٩٢٦م (١٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ) بعد أن وَعَدوا بإطلاقِه، ولكنَّ هذا الوعد -كما تقول جريدةُ لوموند الفرنسية- لم يُوفَ به كما لم يُوفَ بالوعد لعبد القادر قبل خمسٍ وسبعين سنة. ونفَوْه مع أخٍ له وبعض أقربائهما إلى جزيرة (رينيون) في بحر الهند، شَرْقِيّ إفريقية؛ حَيْثُ مكثوا عشرين عامًا. وأُرِيدَ نقلُهم إلى فرنسا (سنة ١٩٤٧م، ١٣٦٦هـ)، فلما بلغوا (السويس) كان شبابٌ من المغاربة قد هيأوا لهم أسبابَ النزول من الباخِرَة، فنزلوا واستقرُّوا في القاهرة، وتُوُفِّيَ بها». (٣٢)

ويُلاحَظُ في تجربةِ الأمير محمد بن عبد الكريم الخَطَّابِيّ ما يلي:

أولا: انتِفاعُه بالمركز الاجتماعي لأسرته؛ مما يؤكد ما سبق في تجربتَي ابنِ عاشور وابْنِ بَادِيس؛ فقد وُلد الأميرُ الخَطَّابِيُّ في بَلدَة أغادير لأبٍ يتولى زعامةَ قبيلة بني وريا غل أكبر قبائل البربر في بلاد الريف، فحَفِظَ القرآنَ الكريمَ صغيرًا، ثم أرسله أبوه إلى جامع القرويين بمدينة فاس لدراسة العلوم العربيةِ والدينية، ثم التحق بجامعة سلمنكا بأسبانيا، فحصل منها على درجة الدكتوراه في الحقوق، ثم عُيِّنَ قاضِيًا بمدينة مليلة التي كانت خاضعةً لأسبانيا. (٣٣)

ويلاحظُ ثانيًا أثرُ هذا الوعي الجامع بين العلوم الشرعية والثقافة العصرية في نجاح ثورة الخَطَّابِيّ وجهاده ضد الأسبان؛ حتى تكالبَ عليه الفرنسيون والأسبان؛ فتمَّ نَفْيُه، ولكنَّ أثرَه كان بالغًا في بلادِ المغرب ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. (٣٤)

د) نموذج عُمَر المُخْتار:

وُلِد عمر المختار -رَحِمَه الله- بليبيا سنة ١٢٧٤هـ (١٨٦١م)، وتُوُفِّيَ سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م). (٣٥)

وهو «عمر بن مختار بن عمر المنفي: أشهر مُجَاهِدِي طرابلس الغرب في حربهم مع المستعمرين الإيطاليين، نِسْبَتُه إلى قبيلة «المنفة» من قبائل بَادِيَة بَرْقَة. وُلِدَ في البطنان (ببَرْقَة) وتعلَّمَ في الزاوية السنوسية بالجغبوب، وأقامَه محمد المهديُّ الإدريسيُّ شيخًا على «زاوية القصور» بالجبل الأخضر بقرب المرج. وسَافَر معه إلى السودان سنة ١٣١٢هـ، فأقيم بها شيخًا لزاوية «كلك» إلى سنة ١٣٢١ هـ، وعاد إلى بَرْقَة شيخًا لزاوية القصور، فأقام إلى أن احتل الإيطاليُّون مدينة بنغازي (سنة ١٣٢٩هـ)؛ فكان في طليعة الناهضين للجهاد، وطالت الحرب، وتتابعت المعارك، ومنطقة المختار ثابتة منيعة. وتهادن الإيطاليون والطرابلسيون سنة ١٣٤٠ هـ، ودَبَّ الخلافُ في زعماء طرابلس وبَرْقة، وتجددت المعركةُ مع الإيطاليين، ونفض الأدارِسةُ يَدَهُمْ منها، فتولى عمرُ قيادةَ «الجبل الأخضر» وتلاحقت به القبائل، واتفق الرؤساء على أنْ يكونَ القائدَ العام والرئيسَ الأعلى للمُجاهِدين. وهاجمتهم القوى الإيطالية؛ فردوا هُجومَهَا، وغَنِمُوا منها آلاتٍ حربيةً ومؤنًا غيرَ قليلة.

وأشهر ما نشب من المعارك معركة «الرحيبة» و«عقيرة المطمورة» و«كرسة» وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر، نُسِبَت إليها تلك الوقائع. ويقول غراسياني Graziani القائد العام الإيطالي في بيان له عن الوقائع التي نشبت بين جنوده والسيد عمر المختار: «إنها كانت ٢٦٣ معركة في خلال عشرين شهرًا»، هذا عدا ما خاضه المختارُ من المعارك في خلال عشرين سنة قبلَهَا. وبينما هو في سرية من رجاله، نحو خمسين فارسًا، بناحية «سلنطة» بالجبل الأخضر،

(٣٢) الأعلام للزركلي ٦/٢١٦-٢١٧. وللدكتور جلال يحيى كتاب (عبد الكريم الخطابي) طبع بالقاهرة.

(٣٣) راجع: الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة، (في ذكرى معركة أنوال: ٢٥ شوال ١٣٣٩هـ)، مصطفى عاشور.

(٣٤) الرعد ١٧.

(٣٥) وفي الأعلام للزركلي ٥/٦٥: عمر المختار (١٢٧٥- ١٣٥٠هـ = ١٨٥٨-١٩٣١م)

يستكشفُ مواقعَ العدو، فُوجئ بقُوَّة إيطالية أحاطت به؛ فقاتلها، واستُشْهِد أكثرُ من معه، وأُصِيب بجراح، وقتل جواده، فانقضَّ عليه بعضُ الجنود فأسروه، وهم لا يعرفون من هو. ثم عُرِف وأرسل إلى «سوسة»، ومنها أركب الطراد «أوسيني» إلى بنغازي. وسُجِن أربعة أيام. وسُئِل عن أعماله فأجابَ بالإيجاب غيرَ هَيَّابٍ، فقُتِلَ شَنْقًا في مركز «سلوق» ببنغازي وأخبارُه كثيرةٌ، بعضُها مُدَوَّنٌ وممن رَثَاه الشَّاعِران شوقي ومُطران».[٣٦]

أولاً: يُلاحَظُ في تجربةِ عُمرَ المُختار -رَحِمَه الله- دَوْرُ أُسْرَتِه الحريصة على تعليمِه في إعداده وصُحْبَتِه للعلماء؛ ليكونَ من أعظم قيادات المجتمع الليبي. وقد عَهِدَ به أبوهُ إلى السيد حسن الغرياني شيخ زاوية جنزور (التابعة للطريقة السنوسية) لتربيته وتحفيظه القرآن، وعند وفاةِ الوالدِ عام ١٨٧٨م في رحلة الحج أوصَى مَن حولَه بأنْ يرعَى هذا الشيخُ أولادَه من بعدِه، فقامَ الشيخُ حسن الغرياني بما عهد إليه خيرَ قِيَام.

وثانيًا: يُلاحَظ أثرُ العلم في تكوين القِيَادات:

فَقَدْ قامَ الشيخُ حسن الغرياني بإرسال عمر المختار وله ستة عشر عامًا إلى معهد زاوية الجغبوب مع أولاده؛ ليتعلمَ في هذا المعهد السنوسي كافةَ العلوم الشرعية، فتلقى القرآنَ وعلومَه على يد الشيخ الزروالي المغربي، ودَرَس على سائر مشايخ المعهد مجموعةً من العلوم الشرعية وغيرها، وقد كان نَهْجُ التعليم في المعهد يعتمد على أن يقوم الدارس بأداء بعض المِهَن اليدوية مثل: النجارة والحدادة، وقد تميز عمر المختار في هذه الحِرَف وفي ركوب الخيل على سائر إخوانه بالمعهد، وتميز أيضًا بشخصيته القيادية واتزانِ كلامِه، مع تواضُعِه وبساطَتِه، وقد ساعدت صِفاتُه على توسيع دائرة اتصالاته، واكتساب حبِّ كل من تَعَامَل معهم وتقديرهم من خلال المهامِّ الكثيرة التي قام بها، وقد انْقَطَع عُمر المختار عن مُواصَلة تعليمه حوالي سنة ١٨٨٦م؛ وذلك بسبب إحساسه بأن وطنه وقومه في حاجة إلى عمله وجهاده.

ثالثًا: أنَّ الجهاد ضد المُسْتَعْمِر ثَمرةُ الغَرْس الطيِّب:

فقَدْ قَاد عمر المختار المجاهدين في ليبيا، ووفقه الله عز وجل أن يُلْحِقَ بالإيطاليين خسائرَ فادِحةً وضرباتٍ مُوجِعة، كما استطاع أن يُلْفِت أنظارَ العَالَم إلى قضيَّتِهم، وقد سَعَت إيطاليا بكلِّ قُوَّتِها وجَبروتِها إلى تصفيةِ عُمر المختار ورفاقه، حتى نجحت في أسره في ٢٨ من ربيع الآخر ١٣٥٠هـ (١١ من سبتمبر ١٩٣١م) بعد أن أُصيب فرسُه، وسقط على الأرض جريحًا، وبعد محاكمة صُورِيَّة سريعةٍ لم تدم أكثر من ساعة، صدر الحُكْمُ بإعدامه، وتم تنفيذُ الحكم في صباح الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ (١٦ من سبتمبر ١٩٣١م) أمام جمهور غفير من أبناء البلاد، سِيقُوا قَسْرًا ليشاهدوا عمليةَ إعدام شيخ المجاهدين الذي كان عمره قد تجاوز الثمانين. ولكن جَذْوة الجهاد لم تنطفئْ إلى نهايات الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م إلى ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) حتى تم خروج آخر جندي إيطالي من ليبيا في (١٩ من المحرم ١٣٦٢هـ/٢٥ من يناير ١٩٤٣م).[٣٧]

والخلاصة:

أنه يُستفاد من هذه النماذج العِلمية المعاصِرة: (ابْن بَادِيس في الجزائر، وابْن عَاشُور في تونس، والخَطَّابِيّ في المغرب، وعُمَر المختار في ليبيا) أنه لا صلاحَ لِلفَردِ ولا لِلمُجتمعِ إلا بالتربية والتعليم، والدعوة الحكيمة، وإعدادِ قادةِ المجتمع من العُلَمَاء الربانيِّين والدعاةِ الموفَّقِين.

وثانيًا: أنَّ الأسرةَ الصالِحة هي اللَّبِنةُ الأُولى في إعدادِ العُلَمَاء الذين يكونون قُدوةً للناسِ وقادةً لهم.

وثالثًا: أنَّ النهضةَ الإسلامية لا تتحققُ في مُجتَمعاتِنا إلا إذا وُجِدت القيادات العِلْمية الصادِقَة العامِلة على تنمية مجتمعاتِها المسلمة على بصيرةٍ.

المَطْلَب الثالثُ: الأمة وإشكالات غياب الرموز العلمية.

أ) أدَّى غيابُ القيادات العِلمية في إدارة مجتمعاتِنا المسلمة إلى

(٣٦) الأعلام للزركلي ٥/٦٥-٦٦. وكتاب «عمر المختار» للسيد أحمد محمود، طبع مصر سنة ١٣٥٣ هـ.

(٣٧) الفاشية تحتل ليبيا، (في ذكرى احتلال ليبيا: ١١ من شوال ١٣٢٩هـ)، سمير حلبي.

أن يُملأ هذا الفراغُ بقياداتٍ ليس لها كفاءةٌ علميةٌ ولا إداريةٌ، وليس لها -في كثيرٍ من الأحيان- قبولٌ اجتماعيّ، كما تَنقُصُها الأمانةُ والورَعُ، وليس لها من بضاعة إلا الولاء الحزبي والسياسي. وهذا مُشاهَدٌ في كثيرٍ من الدول الإسلامية. والله المستعانُ.

ب) لقد أحدثَ غِيابُ القياداتِ العِلمية هُوَّةً حالَتْ بين العُلَمَاء وبين قيادةِ المجتمع وإدارةِ مؤسَّساته؛ فالملاحَظ في مجتمعاتِنا العربيةِ أنَّ من تقدَّمَ الصُّفوفَ -ولو لم يكُنْ له كفاءة- قُدِّم ليقودَ الناسَ بمشرُوعِه؛ وهذا سِرُّ تَسَلُّقِ التجارب القومية والاشتراكية والعِلْمَانِيَّة في العَالَم الإسلاميّ؛ فقد تقدَّمَ أصحابُها في غياب مُنافسةِ العُلَمَاء على مواقِع التأثير والقَرَار؛ فَصَاروا بإقدامِهم ومُبادرتِهم قادةً للناس في سياستِهم واجتماعِهم، ومكَّنُوا لمشاريعِهم بالتحالُفات السياسية حينًا من الدهر. وهذه عِبرةٌ لأهل العلم والدعوة؛ فهم المؤتَمَنُون على قيادةِ الناس وهدايتِهم.

> تسبَّب غيابُ الرُّموز العلمية في انحسار دور العلماء اجتماعيًّا وسياسيًّا ليقتصر -في الغالب- على أوساطِ المتديِّنين ورُوَّادِ المساجد.

ج) لقد تسبَّب غيابُ الرُّموز العلمية في انحسار دور العُلَمَاء اجتماعيًّا وسياسيًّا ليقتصر -في الغالب- على أوساطِ المتديِّنين ورُوَّادِ المساجد؛ مما جعلَ كثيرًا من العُلَمَاء في العالَم الإسلاميّ بمَعزِلٍ عن قوى التأثير الاجتماعي ومراكزِ اتخاذِ القرار السياسي!

د) إنَّ تقصيرَ بعضِ العُلَمَاء في بناء مؤسَّسات المجتمع وإصلاحِها تعليميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا؛ جعلَ منهجَ العُلَمَاء يكتفي غالبًا بردُود الأفعال وما يُشْبِهُ سِياسةَ إطفاء الحرائق، وأما السَّبقُ إلى صِناعة القادة والإصلاح السياسي والإعلامي، وأخذُ المبادَرات الاجتماعية الإصلاحية فأقلُّ من القليل.

المَطْلَب الرابع: الأمة وآليَّات صناعة الرموز والقَادَة:

أ) من الناحية الإدارية والإعلامية:

١) حُسْنُ اختيار من يُرَشَّحُ من طلبةِ العلم ليكون من (القيادات العِلمية للمجتمع)، واستِحْضار حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قال: (النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلام إِذَا فَقِهُوا)،[٣٨] وفي رواية: (تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلام إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ).[٣٩] وروى البُخَارِيّ عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً)،[٤٠] وفي رواية لمسلم: (تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً).[٤١]

٢) تربية طَلَبَةِ العِلم -المرشَّحين لقيادةِ المجتمَع- على خِدمةِ الناس ورِعايَتِهم، وبذلِ المعرُوفِ إليهم؛ ليكونوا رحمةً لأُمَّتِهم.

٣) وَضعُ معايِيرَ عِلْمية وتربوية لهذا الاختيار؛ حتى لا يُرَشَّحَ مَن ليس له صِدقٌ في خِدمةِ الدعوة ورِعاية الناس؛ فيكون مشرُوعَ فِتنةٍ للناس، كما هو مُشاهَدٌ في بعض القِيادات الإسلامية التي فتنَتْ مجتمعَها بالفتاوى المشبوهة والمصالح الموهومة. ولنا في السودان تجربةٌ مريرةٌ والله المستعانُ.

٤) مُراعاة التوازُن في التمكُّن من العُلوم الإسلامية وحُسن الاطلاع على العلوم العَصْرِيَّة.

٥) إقامة دوراتٍ مُكثَّفة للقياداتِ المرشَّحة في الإدارة والإعلام والعلوم المُعَاصِرَة.

(٣٨) صحيح البُخَارِيّ ١٧٦/١١، حديث ٣١٣١. كتاب التفسير، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ومطلع الحديث: (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ. قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي...).

(٣٩) صحيح البُخَارِيّ ٣١٤/١١، حديث ٣٣٣٤. كتاب المناقب. وفي رواية مسلم، كِتَاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَاب خِيَارِ النَّاسِ: (قَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلام إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الأَمْرِ أَكْرَهُهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ). صحيح مسلم ٣٤١/١٢، حديث ٤٥٨٨.

(٤٠) صحيح البُخَارِيّ ١٥١/٢٠، حديث ٦٠١٧. بَاب رَفْعِ الأَمَانَة.

(٤١) صحيح مسلم ٣٨٤/١٢، حديث ٤٦٢٠. في (بَاب (قَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً)

٦) الاستفادةُ من بعض التجارب الإسلامية (مثل تجربة الكويت في تكوين القيادات)، مع العمل على التقييم السَّنويّ.

٧) الدعوةُ لإقامةِ مؤسَّسةٍ خاصةٍ بتكوين القياداتِ الإسلامية وتدريبها ورعايتها، (على نَمطِ معهدِ تأهيلِ العُلَمَاء في موريتانيا على سبيل المثال).

٨) اعتماد إدارةٍ توجيهٍ عِلميةٍ راشِدةٍ (من أمثال العلامة الددو)؛ لإنجاحِ هذه التجربة.

٩) توحِيدُ المناهجِ الدراسية في مؤسَّساتِ تكوينِ القيادات الإسلامية.

١٠) اعتِمادُ وَقفٍ لضمانِ ميزانياتِ تَسْييرٍ سنويةٍ.

ب) من الناحية العِلْمِيّة:

١) تربية العُلَمَاء (العامِلين) والقادة (المصلِحين).

٢) الاهتِمام بالبناء الفِكريّ والسياسيّ.

٣) إحياء قيمة القُدوات؛ وذلك بِرَبطِ القادة المرشَّحِين بكبارِ العُلَمَاء.

ج) من الناحية الاجتماعية:

١) تقويةُ العَلاقَة بين القادة المرشَّحِين وقضايا الأمة.

٢) العِناية بِهَمِّ الإصلاحِ الاجتماعيِّ.

٣) اعتماد الخدماتِ الاجتماعية مجالاً للدعوةِ والإصلاح؛ فالخدمةُ العامةُ من أعظمِ أبوابِ القَبُول في المجتمع، وهي مِفتاحُ القُلوبِ والعُقول؛ فقد قالت خديجةُ رضي الله عنها تُثْني على أنواعِ الخدماتِ الاجتماعية التي كان يُقدِّمُها النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- إلى الناسِ قبل الإسلام: (كلا والله ما يُخْزِيك الله أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدُوم، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعِينُ على نَوائب الحق)![٤٢]

خاتمةٌ:

وقد كان للعلماءِ في السودان -بحمدِ الله عزَّ وجل- بعضُ التوفيقِ في الخدماتِ العلميةِ والاجتماعية:

١) من حيثُ نبذُ الفُرقة والتنازُع بين الدُّعاة، وجمع كلمتِهم على ما ينفعُ الأمةَ ويحفظ هويَّتَها.

٢) وتوعِيةُ المجتمَع السوداني بالدروس والكُتُب، والدورات والمؤتمرات، ووسائل الإعلام المُتَاحَة.

٣) بالإضافة إلى إقامةِ بعض المؤسَّسات التعليمية الخيرية (مثل منظمة المشكاة الخيرية)، والإعلامية في الصحافة (صحيفة المحرر، ومجلة اللواء بالتعاون مع وزارة الدفاع السودانية) والشبكة الدولية للمعلومات (شبكة المشكاة الإسلامية)، والإذاعة (إذاعة طيبة)، مع الإعدادِ لانطلاقِ بثِّ (قناة طَيبة) الفضائية إن شاء الله بإشرافِ بعضِ العُلَمَاء والدُّعاة.

وهذه المشاريعُ الاجتماعية في السودان قد مَكَّنَت العُلَمَاء -بِعَوْنِ الله وفَضلِه- من أداءِ بعضِ الواجبِ في التوجيه العلمي والإصلاحِ الاجتماعي والسياسي.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ المزيدَ من فضلِه وتوفيقِه وعَونِه جلَّ جلاله.

وهذه التجربة السودانية تؤكِّد كذلك ثمرةَ الأخذ بالتربيةِ والتعليم، واعتماد الخدماتِ الإعلامية والاجتماعية في قيادة المجتمع. والله الموفِّقُ، نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصير.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ وَالاه.

(٤٢) رواه البُخَارِيّ في كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.حديث ٣، وأطرافه: (٣٢١٢، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢ - ٤٦٧٤، ٦٥٨١).

معلومات إضافية
الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي

هو العلامة محمد الحسن ولد محمد الملقب «الددو»، زعيم الحركة الإسلامية في موريتانيا، وأحد أبرز علمائها، والملقب في بلاده بـ«نابغة المغرب الأقصى».

مولده ونشأته:

ولد الشيخ الددو نهاية شهر أكتوبر ١٩٦٣م (عام ١٣٨٣هـ) في البادية التابعة لمقاطعة أبي تلميت لعائلة اشتهرت بالعلم والمعرفة. ونشأ بين أبوين عالمين. بدأ دراسة القرآن الكريم في سن الخامسة وأكمله بعد تجاوز السابعة.

درس مبادئ العلوم الشرعية، وصحب جده الشيخ محمد عالي ولد عبد الودود، فحفظ عليه الكثير من المتون المهمة في علوم الوسائل وعلوم المقاصد، وتلقى عليه علوم الكتاب والسنة، ولازمه حتى وفاته، ثم واصل تلقي العلوم على خَالَيْهِ محمد يحيى ومحمد سالم ابني عدود.

نبوغه:

كان من المتفوقين على المستوى الوطني في البكالوريا عام ١٩٨٦م، وأعطي منحة إلى تونس، ولكنه اعتذر عنها. سجل في جامعة نواكشوط -كلية الحقوق-، وشارك في مسابقة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية فجاء الأول فيها، كما جاء الأول في مسابقة القسم الجامعي لجامعة الإمام محمد بن سعود في نواكشوط ليلتحق به، وإثر مقابلة مع مدير الجامعة أثناء زيارة له لنواكشوط اتخذ هذا الأخير قرارًا بنقل محمد الحسن إلى الرياض ليكمل الدراسة فيها. حصل على الماجستير بامتياز في نفس الجامعة، وكانت رسالته عن «مخاطبات القضاة».

يشهد له العلماء بالتبحر في العلوم الشرعية المختلفة، قرآنًا وسنة وفقهًا وأصولاً، فضلًا عن معرفة واسعة بلغة العرب وتاريخهم، وبالعلوم الكلامية والمنطقية.

يقول عنه الدكتور «عبد الله الحكمي» -عضو هيئة التدريس بقسم السنة وعلومها بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض سابقًا-: «هو من أعاجيب الدنيا في الحفظ والاستحضار، يشرح المتون الكثيرة، دون أن ترى بيده كتابًا أو ورقًا إلا في حالات نادرة حين يريد نقل نصّ معين لم يكن حفظه من قبل، ويحفظ من أشعار العرب ودواوينهم وشعر المعاصرين ما لا يخطر على بال.

ومن أعجب ما سمعته منه، ولم أنقله عن أحد: حفظه للمشهور من أقوال الأئمة الأربعة، ومعرفته لدقائق علل الحديث النبويّ، وإذا تكلم في فن قلت: إنه قصر نفسه عليه وأفنى عمره في تحصيله» انتهى كلامه.

نتاجه العلمي:

شارك الشيخ الددو في عدد كبير من المؤتمرات الدولية، ودرس وحاضر في أوروبا وإفريقيا والعالم العربي وآسيا

وأمريكا، وله رسائل مطبوعة كما طبعت رسالته التي أعدها النيل درجة الماجستير، من كلية الشريعة بالرياض، وعنوانها «مخاطبات القضاة». له عدد كبير من الفتاوى والأشرطة. له علاقات جيدة بعلماء العالم الإسلامي.

قائد الحركة الإسلامية الموريتانية:

قاد «ولد الددو» الحركة الإسلامية في بلاده، ويعد هو مرشدها الروحي، وكانت له صولاته في مناهضة الاستبداد والحكم الفردي المطلَق، لكنه دفع حريته ثمنًا لذلك، بتعرُّضه لمضايقات عدة من جانب السلطة في السنوات الأخيرة لحكم الرئيس المخلوع «معاوية ولد سيد أحمد الطايع»، واعتقاله بين الفينة والأخرى؛ بدءًا من اعتقاله في مايو ٢٠٠٣م في مدينة نواذيبو شمال البلاد؛ حيث كان يلقي محاضرة أمام جَمْعٍ مِن المصلين في أحد جوامع المدينة، وذلك بعد فتوى له بتحريم التطبيع مع «إسرائيل»، ووجوب الجهاد للدفاع عن العراق.

كما صدر في مارس ٢٠٠٤م، قرار بحظر نشاطه الدعوي في جميع أنحاء البلاد بمنعه من إلقاء دروس أو خطب في جميع مساجد البلاد.

وفي أكتوبر ٢٠٠٤م، أطلق الشيخ على قناة «الجزيرة» الفضائية، مبادرة الحوار والتسامح بين السلطة والمعارضة، باعتبار الحوار هو السبيل الوحيد لتسوية الأزمة السياسية، ولنزع بذور الفتن والانقلابات في البلاد، لكنَّ النظام الحاكم لم يتجاوب مع دعوته إلى الحوار، وقام باعتقاله للمرة الثانية، في إطار التحقيق حول ما تقول السلطات إنه محاولة انقلاب فاشلة التي أحبطتها يوم ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٤م، لكنها سرعان ما أفرجت عنه بعد عدة أيام قضاها في المعتقل.

وبعد مرور أقل من شهر على الإفراج عنه، أعادت اعتقاله لأكثر من شهرين.

وكان «ولد الددو» أحد أبرز المستهدَفين في حملة اعتقالات شنتها السلطات في صفوف الإسلاميين المعارضين في أبريل ٢٠٠٥م، وذلك قبل زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي «سيلفان شالوم» لنواكشوط في مايو ٢٠٠٥م، وقامت السلطة بتوجيه اتهامات إلى المعتقلين بالتخطيط لاغتيالات داخل البلاد، ما أثار حملة تنديد واسعة النطاق على المستويين العربي والإسلامي؛ حيث طالب العشرات من العلماء والمفكرين في العالم الإسلامي بإطلاق سراحه.

وظل الشيخ الددو رهن الاعتقال لنحو ثلاثة أشهر حتى أطلق سراحه في ٧ أغسطس ٢٠٠٥م وذلك بعد أربعة أيام على الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس معاوية ولد الطايع.

المصادر:

الموقع الإلكتروني للشيخ محمد الحسن ولد الددو: http://www.dedew.net

د. عبد الله بن محمد الحكميّ، عن فخر شنقيط: الشيخ الددو، موقع «الراية» الموريتاني، ٢١/٧/٢٠٠٥م.

فتحي مجد، فقيه في غياهب السجون، موقع «الراية» الموريتاني، ١٩/٧/٢٠٠٥م.

منظمة المشكاة الخيرية

هي منظمة إسلامية طوعية، تأسست في شوال ١٤٢١هـ الموافق يناير ٢٠٠١م بموجب قانون المنظمات الطوعية في السودان بهدف الدعوة إلى الإسلام ونشر العلم الشرعي، على منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

النشأة:

نشأت منظمة المشكاة نتيجة لتنادي مجموعة من العلماء ورجال الأعمال السودانيين رجاء أن يسهموا في نشر العلم الشرعي، ويعمقوا أثره في المجتمع، ويوسعوا دائرته بتعاونهم وتناصحهم وتكامل جهودهم وقد تم تسجيل المنظمة رسميًّا في شوال عام ١٤٢١هـ الموافق يناير ٢٠٠١م.

رسالة المنظمة وأهدافها:

تعمل منظمة المشكاة الخيرية على نشر العلم الشرعي بين العامة والخاصة، وتلجأ في سبيل ذلك إلى كافة الوسائل المتاحة المشروعة، مع مراعاة الظروف الاجتماعية السائدة في أوساط المستهدفين من مشاريعها المختلفة، ودفع وتجميع جهود العلماء والدعاة وطلبة العلم.

لتحقيق هذه الرسالة وضعت المنظمة العديد من الأهداف العامة منها:

١- الدعوة إلى الإسلام بشموله: عقيدةً، وشريعةً، ومنهاجَ حياة.

٢ - نشر العلم الشرعي في أوساط العامة والخاصة.

٣ - الاهتمام بالدعاة والخطباء والأئمة وطلاب العلم وكفالتهم.

بعض وسائل المنظمة لتحقيق أهدافها:

١- تنفيذ الدورات العلمية العامة والمتخصصة التي تخدم شرائح المجتمع المتعددة.

٢- كفالة الدعاة وطلبة العلم وقضاء حوائجهم العلمية والمعيشية الملحة.

٣- تسيير القوافل وإقامة المعارض الدعوية.

٤- طباعة ونشر الكتب والمطويات والنشرات والأشرطة في المكتبات وبين طلبة العلم والدعاة.

٥- تطوير موقع دعوي على الإنترنت يحتوي على محاور دعوية وعلمية، وتحديثه باستمرار.

٦- التواصل المستمر مع العلماء والدعاة وطلبة العلم.

٧- إقامة الكليات والمعاهد والمدارس الشرعية وحلقات الدروس العلمية.

المصدر: الموقع الإلكتروني لمنظمة المشكاة الخيرية: http://www.meshkat.org/